المشرق

مثل انجيلي او وكيل الظلم

للاب لويس شيخو اليسوعي

كتب في اواخر القرن الثامن عشر احد مشاهير الملحدين فصلاً في وصف الانجيل حقَّ ان يُرْجَمَ بالنبز فيعتبهُ كلّ ناكي الوحي بل كل ذي عقل صائب ومما قال: «ان في الاناجيل بساطةً تذهلني وسذاجةً تسحر عقلي ... ترى المسيح يعرض لسامعيهِ اسمى الحقائق واعظم الاسرار فيقرّبها الى اذهانهم دون عناء ولا مشقَّة ولا يحتاج الى زخرف الكلام وبهرجة الالفاظ واساليب الانشاء لما في الحقيقة المجرَّدة من القوَّة والتأثير. فما قولك اذا نطق بها ذاك الذي قال انهُ الطريق والحقّ والحياة وتكلَّم فهُ من فضل ما في قلبهِ (متى ١٢: ٣٤)

وربما ظهرت هذه السذاجة الالهيَّة بكلّ جمالها في الامثال التي تعشَّقها السيِّد المسيح فكان ينثرها من شفتيهِ كالدراريّ الثمينة فيلتقطها مَنْ لهُ اذنان سامعتان فيسمع ويُعمل نظر فكرتهِ في اصدافها فيستخرج ما تكنُّهُ من التعاليم الخلاصيَّة

على انَّ تلك الامثال مع قرب فهمها لا تخلو احياناً من بعض المشاكل التي كانت تحتاج الى من يوضحها ويزيل لبسها ولذلك نرى المخلِّص نفسهُ قد تولَّى غير مرَّة تفسيرها لتلاميذهِ كما فعل بشرحهِ لهم مثل الزرع الواقع على الصخر او في الشوك او في التربة الجيدة ومثل الزوان الذي زرعهُ العدوّ في الزرع الجيد ونمى مع الحنطة. وقد بقي كثير من امثال الربّ في الانجيل الطاهر دون شرح فاعتاص على الشارحين بيان كلّ مشاكلها

فمن ذلك مثل طلب منّا احد ادباء البلدة جناب الكاثليق عبدالله افندي وعد تفسيره الّا وهو مثل وكيل الظلم الذي ذكرهُ القديس لوقا في انجيله (١٦: ١ — ١٢)

وخلاصتهُ انَّ رجلًا غنيًّا كان لهُ وكيل فوُشي بهِ اليهِ انَّهُ يبذّر اموالهُ. فلما دعاهُ سيّدهُ وقرَّعهُ بسوء وكالتهِ وطلب منهُ ان يؤدي عنها الحساب شعر الوكيل بانَّ تصرُّفهُ السيّئ يؤدي بهِ الى ان يُعزل عن الوكالة ويطرَد من خدمتهِ فيضطرُّهُ الامر اما ان يزاول عمل الفلاحة وهو لم يُعتدها واما ان يستعطي ويعرَّض للخجل امام الناس فلم يجد وسيلة للتملُّص من هذين الامرين الّا ان يستدعي مديوني سيّدهِ ويبدل الصكوك المؤذنة بديونهم لهُ بغيرها تنازل لهم فيها بقسم من المال واعطاهم وصولًا في ذلك. وانَّما عمل هذا رجاء ان يجد عند فصلهِ من الوكالة اصدقاء يشكرون لهُ عملهُ فيقبلونهُ في بيوتهم ريثما يجد لهُ عملًا او وكالةً اخرى. فلمَّا علم سيّد الوكيل بصنيعهِ اثنى على فطنتهِ. فختم السيد المسيح هذا المثل بقولهِ: «وانا اقول لكم اجعلوا لكم اصدقاء بمال الظلم حتى اذا ادرككم الاضمحلال يقبلوكم في المظالّ الابديَّة»

فطلب السائل اوَّلًا كيف امكن الربّ ان يمدح وكيل الظلم ويثني على حكمتهِ اذ استكتب مديوني سيدهِ صكوكًا خصم لهم فيها قسمًا من دينهم بلا عدل واباد الصكوك الصحيحة وهذا العمل ليس حكمة بل خيانة. ثمَّ طلب السائل ثانيًا معنى قولهِ «اجعلوا لكم اصدقاء بمال الظلم» ايريد السيد المسيح ان نظلم ونقتني بمال الظلم اصدقاء وكيف يقبلنا هؤلاء الاصدقاء في المظالّ الابديَّة اذا فتنا ومن هم هؤلاء الاصدقاء

الجواب

كلَّا لا يريد الربّ في هذا المثل الثناء على الخائن ولا ظلم احد لنقتني لنا اصدقاء في الآخرة

وقبل الجواب على سؤال السائل لا بُدَّ من استطلاع المثل المذكور والنظر في مقدّماتهِ ولواحقهِ التي من شأنها ان تبيّن غاية المتمثل بها فنقول:

﴿ توطئة ﴾ انَّ هذا المثل ورد في انجيل لوقا بين مثلين آخرين لهُ معهما بعض الارتباط وهما مثل الابن الشاطر ومثل غنيّ السوء ولعازر الفقير فاراد الربّ ان يصف

بالامثال الثلثة ما ينال المرء من الجدوى او من الضرر في الآخرة باستعمال الاموال الزمنيَّة على طريقة صالحة او سيئة. فبيَّن بمثل الابن الشاطر الى ما يؤدي تبذير المال بالخلاعة والطيش حتى يصير الانسان اشبه بالحيوانات فيحسدها على ذلها وخساستها ما لم يرعوِ فيتوب ويرجع الى عزّ مقامهِ وشرف منزلتهِ. وفي مثل الغني المتنعم بمالهِ المصلّب قلبه على لعازر الفقير قد مثَّل بنوع حيّ ما ينتظر الاغنياء الجفاة من العذاب الاليم في الآخرة حيث ينال الفقراء ثواب صبرهم وهم يعذَّبون بالنار الآكلة. اما مثل وكيل الظلم الذي نحن بصددهِ فضربهُ ليحرّك في قلوب الاغنياء عاطفة الحنوّ على الفقراء ليكفّروا بذلك عن ذنوبهم فيشفع بهم الفقراء المطوَّبون عند الله وينالوا الرحمة منهُ كما رحموهم في الحياة فانَّ الرب قال: ارحموا تُرحَموا وبالكيل الذي تكيلون يُكال لكم

﴿ غاية المثل ﴾ فالغاية اذن من ضرب هذا المثل ان يحضّ السيد المسيح ارباب المال على اعمال البرّ والرحمة عساهم يجدون بذلك لنفوسهم مناصاً من الديونة التي تنتظرهم والحساب الذي يُقتضى عليهم تأديتهُ يوم المعاد كما قال دانيال لنبوكدنصّر (٤: ٢٤): افتدِ خطاياك بالصدقة وآثامك بالرحمة للبائسين

والدليل على انَّ السيد المسيح قصد بهذا المثل رَذْل البخل ونَفْي الحرص الزائد على المال ما ختم بهِ المثل بقولهِ (لوقا ١٦: ١٣): «لا يستطيع احد ان يعبد ربّين... لا تقدرون ان تعبدوا الله والمال»

وهذا ما ادركهُ الفريسيون الذين قصدهم السيد المسيح بمثلهِ فقال عنهم القديس لوقا (١٦: ١٤): وكان الفريسيون الذين هم بخلاء يسمعون هذا كلَّهُ ويستهزئون بهِ

﴿ وجه المثل ﴾ فاذ تبيَّن المقصود من هذا مثل الربّ يجب علينا ان نبيّن وجه المثل وانطباقهُ على الغاية المطلوبة. فان السيد المسيح كعادتهِ في امثالهِ لم يطلب لهُ مثلاً بعيداً بل اخذهُ من الماجريات القريبة اليوميَّة حتى ينتقل من الامور الزمنيَّة الى الامور الروحيَّة ومن المنظورات المحسوسة الى غير المنظورات المعقولة فاخذ مثال وكيل تولّى تدبير اموال احد الاغنياء واساء التصرُّف بوكالتهِ الى ان نمى خبرهُ الى سيدهِ فعزم على طردهِ بعد محاسبتهِ. واذ عرف الوكيل انهُ لا ينجو من تبعة عملهِ طلب لهُ وسيلة ليتدارك ما سيحلّ بهِ من الفقر بفقدان وكالتهِ واتخذ وسيلة مذمومة

في ذاتها الّا انها موافقة لستر حالهِ بان اعفى مديوني سيدهِ من بعض مـا عليهم لهُ. ووافقهُ المديونون على خبثهِ وخيانتهِ وما كانوا ازكى ذمَّة منهُ. وكلّ هذا ممَّا نراه يوميًّا بالعيان فذكرهُ السيد المسيح ليكون وقعهُ اعظم في النفوس. على انَّ هذا العمل مهما كانت شناعتهُ لم يخلُ في اعين البشر من فطنة وحكمة عمليَّة (او شطارة كما يقال) فمن هذا الوجه استحقَّ الوكيل ثناء سيده كما نرى البعض يستحسنون ملعوباً ظريفاً دالًّا على حسن نظر وان كان فيهِ شيءٌ من سوء العمل فيغضون النظر عن هذا ليلقوا بهِ الى ذاك ولعلَّ السيد المذكور مع ثنائهِ على فطنة وكيلهِ لم يكفّ عن عزلهِ وطردهِ وفي الآية ما يرجّح الامر حيث يسمّي ذاك الوكيل «وكيل الظلم» في وقت ثنائهِ على تدبيرهِ لصالحهِ

﴿ من هو السيد المُثني على عمل وكيل الظلم ﴾ ظنَّ البعض انَّ السيد الذي ذُكر في المثل استحسانُهُ لعمل وكيل الظلم انَّما هو الربّ الاله وهذا غلط ظاهر فانَّ سياق الكلام يدلُّ على انهُ سيد ذلك الوكيل اذ لم يأتِ بعدُ مغزى المثل وتخصيصهُ بالروحيَّات وهذا المغزى ورد بعد قولهِ «فاثنى السيد على وكيل الظلم لانهُ صنع بحكمة» حيث اردف فقال: «فانَّ ابناء هذا الدهر احكم من ابناء النور في جيلهم»

﴿ تخصيص المثل الواقعيّ بالروحيَّات ﴾ اذ ظهر لنا في ما تقدَّم من اين استمدَّ السيد المسيح مثلهُ وما هو وجه المثل ومَن ذاك السيد المحكي عنهُ فيهِ ينبغي ان نبيّن كيف طبَّق الرب هذا المثل مع الغاية التي توخّاها. فلبيان ذلك ينبغي ان نقابل بين المثل والمقصود منهُ فنستقري وجوه المطابقة بينهما في الامور الهامَّة دون التفاصيل الدقيقة التي وردت في المثل زيادةً لتزيينهِ واستجلاباً لخواطر السامعين اليهِ

(اوَّلًا) من هو الغنيّ المحكيّ عنهُ في هـذا المثل؟ هو الله سبحانهُ وتعالى الذي وحدهُ اغنى كافَّة المخلوقات ولا سيما الناطقة بما تبرَّع بهِ اليها من المواهب واسبغ عليها من النعم

(ثانيًا) من هو وكيل ذلك الغنيّ؟ كلُّ انسان منَّا اعطاه الله خيرات هـذه الحياة فوكلها اليهِ ليحسن استعمالها ويستعين بها لآخرتهِ

(ثالثًا) ما المراد بالوشاية الى السيد واستدعاء المذكور لوكيلهِ للمحاسبة؟ ذلك اشارة واضحة الى يوم الدين حيث يُطالب الانسان بازاء ملائكة الله وعدوّ

الجنس البشري عن وكالته اي عن تصرُّفهِ بالخيرات التي نالها منهُ تعالى تسهيلًا لامر خلاصهِ

(رابعاً) ما الغاية من ذكر عمل الوكيل لترضية مديوني سيده ؟ الغاية منهُ بَعْث الانسان الى استدراك الشرّ الملمّ بهِ في آخرتهِ بالاحسان الى الفقراء والبائسين فانَّ هؤلاء وان كانوا ايضاً من مديوني السيد الَّا انَّ دينهم اخفّ وحسابهم أيسر والربّ يقبل شفاعتهم في الذين رحموهم وهو القائل يوم الدينونة : « الحقَّ الحقَّ اقول لكم انَّ كل ما فعلتم مع احد هؤلاء الصغار فيَّ فعلتموهُ » (متى ٢٥ : ٤١)

﴿ مغزى المثل ﴾ لا يبقى فيهِ شبهة بعد الملحوظات السابقة . يجب على المثرين والاغنياء الذين عهد الله اليهم باموال هذا العالم ان يصرفوا جانباً من هذا المال في اعمال الرحمة لتستر صدقاتهم عن ذنوبهم ويشفع بهم عند الله اولئك الذين خفَّف الموسرون بلاياهم في هذه الحياة كما صرف وكيل الظلم جانباً من المال الموكول اليهِ لينجو ممَّا كان يتهدَّدهُ بعد انفصالهِ عن الوكالة من سوء العقبى

﴿ حلّ المشاكل ﴾ بقي علينا ان نحلّ بعض المشاكل فيزول ما في المثل من الابهام

المشكل الاوَّل . هو مدح السيد المسيح لوكيل الظلم وهذا قد بطل بما تقدَّم فانَّ السيد المعنيّ بهِ هنا ليس هو الربّ الاله بل الغني صاحب وكيل الظلم . وثناؤهُ على وكيلهِ ليس هو ثناء مطلقاً كما يُثنى على عمل صالح بل هو ثناء مقيَّد على عمل فطنة وحسن تدبير احتاط بهِ الوكيل لنفسه مع قطع النظر عن جواز العمل شرعاً . بل يوجد في قول الكتاب « وكيل الظلم » ما يدلّ على استقباح جوهر الفعل . كما يظهر ايضاً من القرائن انَّ السيد المسيح فرق بين حذق الوكيل في تصرُّفهِ وسوء عملهِ حيث دعاهُ احد « ابناء هذا الدهر » وقابل بينهُ وبين « ابناء النور » وشتَّان بين ابن الدهر وبين ابن النور

المشكل الثاني . ما معنى مال الظلم في قول الربّ : « اجعلوا لكم اصدقاء بمال الظلم حتَّى اذا ادركتكم الاضمحلال يقبلونكم في المظالّ الابديَّة » هل اراد بهِ مال الحرام الذي تظلم بهِ الناس فنصرفهُ في المبرَّات لنتال بهِ خيرات الابديَّة ؟ كلَّا فان الربّ أطلق هنا اسم « مال الظلم » على كلّ الخيرات الزمنيَّة الموكولة الى

الانسان وذلك لسببين اولًا لانَّ هذه الخيرات لا سيما المال كثيرًا ما تكون داعياً للظلم بالمبايعات والمعاملات والدعاوى الباطلة والسرقات وغير ذلك. ثانياً لأن الانسان عادةً يتصرَّف بها تصرُّف السيد بمالهِ وهو وكيل عليها ليس الَّا فيستبدّ بها ويؤدي بهِ استبداده الى ان يبخل بقسم منها على الفقراء والمحتاجين وذوي البأساء فهو من هذا القبيل ايضاً اشبه بوكيل الظلم اذ يبذّر اموال الله على غير هداية

ومن هذا يتضح ان مثل وكيل الظلم ليس فيهِ شيءٌ يخلُّ بتعاليم السيد المسيح في كلّ الاناجيل الطاهرة وبهِ تسقط حجّة يليانوس الجاحد وبعض الملحدين مثلهُ الذين خبطوا خبط عشواء لمَّا زعموا بانَّ المسيح عمَّم في هذا المثل التلاعب بمال الناس ولو تمعَّنوا في كلامهِ تعالى لرأوا انهم في ضلال مبين

﴿ خلاصة القول ﴾ ليس هذا المثل سوى تحريض للمؤمنين ابناء النور كي يرتشدوا من اعمال ابناء الدهر الباطلة وبينما نرى هؤلاء لا يدَّخرون وسعاً لادراك مآربهم الفاسدة وجب بالاحرى على اولئك ان يستفرغوا المجهود في ادراك غاياتهم الصالحة وخلاص نفوسهم. واقرب وسيلة الى ذلك ان يصرفوا حطام هذه الدنيا في اعمال الرحمة كما يتَّخذ اهل العالم تلك الاموال على ايّ طريقة كانت امَّا جورًا وامَّا عدلًا للنجاة من اكدار هذه الحياة

كتاب

طبقات الامم

للقاضي ابي القاسم صاعد بن احمد بن صاعد الاندلسي

سمى بنشره وتعليق حواشيه الاب لويس شيخو اليسوعي

توطئة

كتاب طبقات الامم احد الكتب النادرة التي تعرَّض فيها كتبةُ العرب لوصف العلوم بين الامم التي سبقت عهدهم. وان لم يبلغ صاحبهُ في ذلك شأو كتاب الفهرست لابي الفرج ابن